الايدولوجيا القومية بالواقع التي تعبر عنه لا تتميز بالتوافق بل باللاتوافق ، فالايدولوجيا القومية لا تعبر عن « قومية » منجزة بل تدعو اليها ، يسبق « النظر » القومي التحقق المادي للقومية ، وهذه المسافة بين النظر والتحقق هي التي تدفع الاول الى عوالم مثالية متعددة ، فبعض المنظرين القوميين يربطون بين القومية و « الملأ الاعلى » او بينها وبين « روح الزنوجة » او « الروح الابدية الصافية » ٠

في مسار البحث عن الذات وتحديد الهوية وتلمس الاصول ، يصل بعض مثقفي العالم الثالث الى مشارف الفكر القومي الاوروبي يترجمونه ويستلهمونه عبر موقف ثنائي البعد : يعي البعد الاول الدور التدميري للهيمنة الاستعمارية، ويبحث البعد الثاني عن اسباب « القوة » الاوروبية ٠ ولقد لعبت الافكار القومية الالمانية الرومانسية دورا كبيرا في تشكيل الافكار القومية في آسيا وافريقيا ، وظهر هذا التأثير واضحا في أفكار التركي زياجو كلب Ziago Kalp والعربي ساطع الحصري ٠

تتسم الايدولوجيا القومية بطبيعة مزدوجة متناقضة داخليا ، فهي تلعب من جهة دورا ايجابيا تاريخيا ابان صراعها المباشر مع الاستعمار ، وتلعب من جهة ثانية دورا سلبيا بعد الاستقلال ، عندما ترفع راية « التقدم القومي » و « التفرد القومي » ، وهذا يعني أنه لا يمكن معالجة الايدولوجيا القومية ككيان سماوي مجرد ، بل ينبغي ربطها بالطبقات الاجتماعية التي ترفع رايتها وبمهماتها التاريخية في شرط تاريخي محدد ٠ يسود كل بلد في مراحل مختلفة من تطور حركته القومية ، هذا الجانب او ذاك من الايدولوجيا القومية ٠ بيد أن واقع هذه الحركة يدل على انه بمقدار ما تتطور هذه الحركة تطورا ايجابيا ، وبمقدار ما تنتقل من مرحلة الحصول على الاستقلال السياسي الى مرحلة التحولات الاقتصادية ـ السياسية والاجتماعية والثقافية ، تتعرض الايدولوجيا القومية الى تغيرات هامة (١١) ٠

ان تحقيق القومية ماديا لا يتحقق بنشر النظريات القومية بل بتحول اجتماعي يشمل المجتمع بكليته ٠ وهذا الواقع يدفع بالمسألة الى وضع جديد : القومية في « البلدان المتخلفة » او الوعي القومي « والتخلف » ٠ اذا ربطنا سيرورة الظاهرة القومية بالشرط الاقتصادي في آسيا وافريقيا ، امكننا ملاحظة ما يلي:

١ ـ لا تستطيع العلاقات الاقتصادية في البلدان المستقلة ان تتطور بشكل طبيعي بسبب بنيانها المشوه وآفاقها المغلقة المحكومة بتبعية بنيانية للاستعمار الكلاسيكي والجديد ، وهذا يعني انها لن تصل في شكلها الحالي مهما بلغ تطوره الى نمط الانتاج الرأسمالي الذي يشكل مرحلة متقدمة في تطور الظاهرة القومية ٠